obeikandl.com

1) انتفاضة الجسم:

عندما تنطلق أمامنا كلمة "مراهقة" يخطر ببالنا لأول وهلة نمو الجسم الذى تزداد سرعته، وكذلك التغيرات الداخلية التى ستجعل الكائن الحى قادرًا على القيام بمهام النضوج، وهذه هي "انتفاضة الجسم" التى تسترعى انتباهنا في أول الأمر، وهكذا يكون الطريق الأول الذى نطرقه. ولكنا سنجد أمامنا كذلك طريقًا آخرًا مضادا، إذ يتجدد الإحساس في هذا السن بالحب والانفعالات، ويصير حتى عند ذوى الطبيعة المثابرة، محورًا أساسيًا للنشاط النفسى وهكذا ترتبط انتفاضة الجسم "بانتفاضة القلب".

ولا يقترب هذان الطريقان بمحض الصدفة، بل إنَّ تجاورهما لا يفيد إلا في إبراز مدى ارتباط الحياة العضوية بالحياة العقلية، وهذا ما يوجد أيضًا في كل مرحلة من مراحل الحياة، ويعبر ظهور الغريزة الجنسية، وهى غريزة جوهرية تقع على الحدود الفاصلة بين الجسم والنفس، عن الوحدة بين الانتفاضتين.

ومن السهل أن نلحظ ما يمثله نمو الجسم فى المراهقة. فعلى شاطئ البحر حيث تقيم للاستجمام، ترى أخوان في لباس الاستحمام. انظر إليهما جيدًا، فإنَّ أكبرهما يكاد يكون في العشرين من عمره بينما الأصغر يناهز العاشرة. ويختلف جسماهما في الطول والبنية والنسب كما تتعارض المشية الوثابة عند أصغرهما مع المشية المرنة المستطيلة عند الآخر. وتتناقض كذلك الأشكال الدائرية غير المحددة عند الطفل مع وجه أكثر تعبيرًا وعضلات أكثر وضوحًا عند الشاب. وبينما هما يتحادثان. يتناوب في حوارهما صوت طفلى حاد ورفيع وصوت آخر خشن يصاحبه قرار خفيض.

فإذا واجهنا النمو العضوى عن قرب، لميزنا له في الجسم ما يسمى فقد وايزمان Soma، أي الغلاف الجسمى الذى يولد ويكبر ثم يموت، وأيضًا Germen أي الخلايا التناسلية التى لا تموت أبدًا، إذ إنها تستمر بالإخصاب عبر الأجيال المتعاقبة.

سن الملابس القصيرة جدًا: والمراهقة سن الملابس القصيرة جدًا، وهذا ما يعنى بعبارة أخرى تزايد سرعة طول القامة. فالطفل يكبر بسرعة كبيرة في أول الأمر، فيتضاعف متوسط طول القامة فيما بين الولادة وسن الخامسة، ثم تدل منحنيات الإحصاء على تناقص هذه السرعة حتى تبلغ الحد الأدنى عند سن العاشرة وبعد هذه "الراحة" ينتفض النمو من جديد في حوالي السنة الثانية عشرة عند الولد، وقبل هذا بسنة تقريبًا عند الفتاة. وتبلغ زيادة طول القامة ما بين 20سم و25سم، وهذا قليل بالنسبة للنمو في مجموعه، ولكنه يدهشنا لأنه يظهر لنا كنوبة مفاجئة سريعة أحيانًا. وقد تحدث خلال عدة شهور في أثناء مرض طويل مثلا – زيادة تقدر بعشرة سنتيمترات وأكثر، قد تمتد في أحيان أخرى على مدى عدة سنوات. ويلاحظ جودان Godin أن النمو لا يعرف مطلقًا الانتظام، فهو متقطع بدرجات متفاوتة ويبدو إيقاعه مرتبطًا ليس فقط بالمزاج الفردى، بل أيضًا بظروف الوسط الخارجى، كما أنه يكون أكثر أهمية في الصيف عنه في الشتاء.

ويُغير النمو كثيرًا من نسب الجسم، فللطفل رأس كبير على جذع وأطراف قصيرة نسبيًا. أما في البداية المراهقة، فتطول الساقان بسرعة حتى إن عددًا كبيرًا من الشبان يبدون وكأنهم يسيرون على عكاز، وتزداد سرعة الحركة في منطقة المفاصل حتى إن الجلد يكاد لا يصل إلى نفس النمو، فتحدث عند الركبتين انتفاخات تُظهر شرائحًا عرضية من الجلد أكثر شحوبًا، وتسمى "تشققات النمو"، ثم ينمو الجذع بدوره بسرعة حتى يصل إلى شكل الشخص البالغ، وفيه تكون العلاقة بين الأطراف السفلى وباقى الجسم – كما يقول تقرير مانوفرييهManouvrier أقل قليلاً من الواحد الصحيح. وهذا التناوب يوجد في كل جزء من الهيكل العظمى، فيطول أو يزيد عرضه على التوالى.

ولكل جزء في الأطراف سرعة نمو خاصة به: فتكبر الأيدى والأقدام عادة أسرع من باقى الذراع أو الساق، وينتج عن هذا ثقل عرضى في الحركة. وتبدو الرأس كما لو كانت قد أفلتت من هذا

النمو الجسمى، فإن حجم الجمجمة يزداد ببطء، وهكذا يكون غطاء الرأس هو القطعة الوحيدة من الملابس التى يمكن استخدامها من سنة لأخرى.

وهذه هى الدفعة "الأخيرة" في الهيكل العظمى إذ تقل الزيادة في الطول في حوالى السادسة عشرة وخاصة عند الفتاة وعند سن العشرين، تقل كثيرًا جدًا إذ لا تقوى العظام على النمو عندما يختفى غضروف المفصل، وهذا ما يحدث فيما بين سن العشرين والخامسة والعشرين، فتأخذ عظمة الفخذ مثلاً شكلها النهائى في حوالى سن الثانية والعشرين.

ويظهر نمو مماثل في بعض الأحشاء× إذ يبلغ معظمها الحد الأقصى من الثقل عند المراهقة: وهذه هي الحال بالنسبة للكبد. وأسرع نمو يقع في القلب الذى يكاد يتضاعف حجمه فيما بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة، وفي نفس الوقت يزداد التوتر الشريانى، كما يصل القلب إلى وزنه النهائى تقريبًا وهو 0.52% من الوزن الكلى للجسم. وعلى العكس من ذلك. يكاد المخ – الذى يبلغ ثلاثة أضعاف وزنه في السنة الأولى من الحياة – لا ينمو بعد السنة الرابعة عشرة من العمر، ويكون متوسط وزنه فيما بين سن الرابعة عشرة والعشرين 1374جم عند الأولاد، 1244جم عند البنات ثم يتناقص قليلاً.

وتتغير إيقاعات الحياة كذلك، فتنخفض ضربات القلب التى كان عددها 135 عند الولادة إلى 90 قبل المراهقة مباشرة، ثم إلى 75 عند الولد و 80 عند البنت، ويتنفس الشاب بسرعة أقل من سرعة تنفس الطفل، ولكن القدرة التنفسية التى تلاحظ من خلال جهاز قياس النفس تزداد بشدة فيما بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة: وهذه هى إحدى الدلائل الهامة للحيوية.

وتثبت ملامح وجه الشاب وتحدد معالمه، فتكبر الأنف عادة بسرعة أكبر من باقى أجزاء الوجه ويزيد عرض الفك ويتغير لون

البشرة ويصبح أكثر نقاءً عادة. وتبدأ حدود الشعر على الجبين في فقدان انحناءاتها الطفلية، ويظهر تراجعان خفيفان في أعلى الوجنتين. ويقل تغير ملامح الوجه عند الفتاة المراهقة، فتحتفظ باستدارتها، ولكنها تزداد رقة وتصبح أكثر تعبيرًا.

وتفوق زيادة وزن الجسم زيادة للطول، ويزداد الوزن في الجنسين في حوالى سن الثانية عشرة، فبينما كانت الزيادة السنوية تتراوح بين كيلو جرام واحد أو كيلو جرامين، ترتفع إلى أربعة أو خمسة كيلو جرامات فيما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة. ويختفى الشحم المخزون الذى كان يوجد قبل البلوغ بينما تقوى العضلات بسرعة، وترتفع القوة العضلية التى تقاس بالديناموميتر إلى ثلاثة أضعافها وتبلغ منتهاها فيما بين سن الخامسة والعشرين والثلاثين، ولكن هذا التقدم يكون أسرع بكثير عند الشاب منه عند الشابة، ففي سن الثانية عشرة تكون قوة الأول معادلة لضعف قوة الثانية. وتقوى الأطراف السفلى في البداية ثم يأتى دور الظهر والذراعين، فمثلاً تتضاعف صلابة قبضة اليد فيما بين سن الرابعة عشرة والسابعة عشرة.

وفي نهاية المراهقة، يمكن القول أن الجسم قد تجاوز حالة الطفولة إلى حالة قريبة من النضوج، فقد وجد أنه ابتداءاً من سن السابعة عشرة، لم يبق للولد إلا أن يحصل في المتوسط على 10/1 قامته و 3/1 وزنه كى يصل إلى حالة النضوج.

الأنماط الشكلية: تتراوح أهمية النمو تبعًا للأفراد، فعادة ما يصبح الأطفال الطوال بالنسبة لسنهم رجالاً ذوى قامات عالية، وقد ينقلب النمط الشكلى عند البلوغ، ولكن هذه حالة نادرة عند السويين من الأفراد، إذ تتحدد فيهم معالم النمط فقط. ومنذ ربع قرن، قامت محاولات لدراسة الأمزجة والتكوينات من خلال نسب الجسم حتى يتسنى الوصول إلى تصنيف للأفراد وهكذا فرق كريتشمار Kretschmer بين نمط رفيع طويل أسماه "الواهن Leptosome" ونمط قصير سمين أسماه "البدين Pycnique" ففى

النمط الأول يبالغ النمو البلوغى عادة من النحافة، وتضيق الأكتاف وتضمر الأطراف وينحف الوجه ويطول: وهذه هي مجموعة "الواهنين" الضعاف ذوى الحركات المفككة. وهناك آخرون ينتمون أيضًا إلى النمط الطويل ولكن لهم طبيعة أكثر قوة، فيزيد نمو عضلاتهم، وتكون رقبتهم أقوى وأكتافهم أعرض، ويكونون مجموعة المراهقين "الرياضيين Athletiques" وينالون حظوة كبيرة في الملاعب الرياضية وعلى العكس من ذلك يظل النمط البدين مكتزًا بالرغم من النمو البلوغى ويحتفظ بوجهه الطفلى الضخم المورد وبأطراف سفلى أكثر قصرًا من باقى أجزاء الجسم. ويوجد أخيرًا من بين الشباب من لهم نمو لا يتم بطريقة متسقة وهؤلاء هم "dysplasiques" ولكن حالتهم هذه يختص بها علم الطب وحده.

وهذه الأنماط الشكلية المختلفة، وبخاصة النمط البدين منها، لا تصل إلى نموها الكامل إلا عند النضوج. ولكنها تتميز عن بعضها البعض منذ المراهقة، ونضيف أيضًا أنها تكون أكثر وضوحًا عند الرجل عن المرأة.

البلوغ: وإلى جانب التغيرات الجسمية التى تختص بها البنية، توجد تغيرات ترتبط بتطور الخلايا التناسلية وهى أكثر أهمية وتحدد ما يسمى بالبلوغ، وإحدى العلامات المميزة له هى ظهور الشعر خاصة في المنطقة التناسلية، فليس للطفل عدا فروة شعر الرأس إلا بعض الزغب الناعم. وفى حوالى الثانية عشرة، ينمو عند الفتاة، وبعد ذلك بسنة واحدة عند الولد، شعر في العانة، ينثر عليها في أول الأمر ثم يزداد كثافة فيما بعد. وتمر سنة أخرى قبل أن يظهر شعر الإبطين، كما يغزر شعر الحاجبين. وفي حوالى سن السادسة عشرة يظهر ظل شارب فوق الشفة العليا ويغزو الشعر الذقن أيضًا حتى يضطر المراهق لحلاقته، ويعتبر هذا حدثًا في حياته يسبقه تفكير وتردد. ولكنه ما أن يتخطى هذه العقبة حتى يشعر أنه قد صار رجلاً.

ويعرف الولد تجديدات أخرى، فيقلق لظهور بقع سوداء على جلده وبخاصة حول أنفه وعلى ذقنه أو على كتفيه وتزداد إفرازات الغدد الدهنية وتسد بعض مسام الجلد. ومن هنا كان حب الشباب، وهو شائع، ولكن ليس له عادة من خطورة إلا في نيله من اعتداد الشاب بنفسه ويعتبر تغير الصوت أيضًا حدثًا هامًا. ويختلف توقيته تبعًا للجنس وللمناخ، فتنمو الحنجرة عند البلوغ وتبرز تفاحة آدم ويزيد طول الأحبال الصوتية فيأخذ الصوت –وكان من قبل حادا – نبرة خشنة غير مستحبة، وتستمر عدة شهور ثم تنخفض حدتها خلال عدة أسابيع، وأخيرًا تثبت، وفى حوالى سن السابعة عشرة، تختفى آخر الاضطرابات الملازمة لهذا التغير. ويتغير صوت المرأة أيضًا، ولكن بطريقة تكاد تكون غير محسوسة، وتثبت نبرته المعبرة في حوالى سن الخامسة عشرة.

ويكمل البلوغ الأنثوى من جانبه بنمو الثديين والحوض، فيتكور الثديان منذ سن الثانية عشرة ثم يأتى بعد ذلك دور الحلمات بينما تكون المجارى اللبنية والغدد المفرزة للبن، أما عند الشباب فيقتصر الأمر على مجرد انتفاخ بسيط والإحساس ببعض الحكات الخفيفة. ويلاحظ اتساع حوض الفتاة فيما بين سن العاشرة والخامسة عشرة، ويزيد محيطه بحوالى العشرين سنتيمترًا، وهذا ما يعطى لجسم الأنثى شكله المميز.

وتسمى كل هذه التغيرات الشكلية "بالخصائص الجنسية الثانوية" على عكس الخصائص الجنسية الأولية التى توجد منذ الولادة، وتعلن عن قدوم ظاهرة هامة وتعبر تعبيرًا أساسيًا عن البلوغ بقيام الوظيفة التناسلية عند نضج الخلايا التناسلية وهى "البويضة" أو "الخلية الأنثوية والحيوان المنوى"، أو الخلية الذكرية.

والحدث الهام لدى الفتاة هو ظهور الطمث الأول في اللحظة التى تبدأ فيها الدورة الشهرية لنمو البويضات، فإن البويضات التى توجد في المبيض منذ المرحلة الجنينية، تتحول أثناء الطفولة إلى "حويصلات جراف" التى تحوى كل منها بويضة، وتعطى هذه

البويضة التى تخرج أثناء الدورة التى تستمر حوالى ثمانية وعشرين يومًا – إذا ما لقحت بالحيوان المنوى – بيضة هي أصل الجنين، ويعلن ظهور الدم الأول – وهذا ما يحدث بعد ذلك دوريا – عن نهاية دورة نمو البويضة.

ويختلف سن ظهور الطمث تبعًا لظروف عدة، ومتوسط هذه السن في فرنسا بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، ولكن هناك فتيات يحضن بطريقة طبيعية منذ سن الحادية عشرة، وأخريات عند سن السابعة أو الثامنة عشرة، وهناك حالات استثنائية تتخطى هذه الحدود بكثير، وتعتبر درجة الحرارة سببًا رئيسيًا لهذا الاختلاف. والجنس سبب آخر، ففى الولايات المتحدة، تحيض الفتيات الهنديات قبل الفتيات البيض، والوسط الاجتماعى سبب ثالث، فسن الحيض يكون أكثر تبكيرًا في الطبقات الميسورة عنه في الطبقات الفقيرة، وفى المدن عنه في الريف، وهناك أسباب ذات طابع نفسى مثل القراءات والمشاهد الجنسية تعجل من ظهور الطمث ولا تعتبر نتائج هذه الدراسات مؤكدة، فقد كان من المعروف أن الفتيات في البلاد الحارة يحضن قبل فتيات البلاد الباردة، أى في سن الثامنة عشرة في منطقة لابونيا[٦] وفي التاسعة أو العاشرة في الحبشة: ولكن وجد في بعض الأبحاث الحديثة ما يشير إلى أن التبكير يزيد كلما كان المناخ أكثر "إثارة" بمعنى ألا يكون حارًا أو باردًا على مدار السنة. وقد ظهر من الأبحاث أيضًا أن متوسط سن الطمث الأول قد أخذ في الانخفاض في الأجيال القريبة الماضية، كما حدث في هولندا والولايات المتحدة الأمريكية مثلاً.

ولا توجد عند الولد علامة محددة تدل على ظهور الوظيفة التناسلية، وهى اللحظة التى ترى فيها حيوانات منوية في السائل المنوى، إذ إن عند البلوغ تنمو الخلايا التناسلية التى تضمها الخصيتان، وكانت من قبل في كمون خلال مرحلة الطفولة، وتفرز هذه الخلايا الحيوانات المنوية بصفة مستمرة.

---

(٦) إقليم في أوربا يقع ضمن الدائرة القطبية وتقتسمه كل من النرويج والسويد وفنلندا وروسيا.

وهكذا نجد أنَّ تكوين البويضة وإفراز الحيوانات المنوية حدثان أساسيان يرتبطان بالبلوغ ويصاحبهما نمو مواز في الغدد التناسلية، أى في المبيض عند الفتاة والخصيتين عند الشاب، وكذلك في الأعضاء التناسلية الخارجية. ويكاد ينتهى النمو الجنسى عند الفتاة في حوالى سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة، وعند الشاب في حوالى سن الثامنة عشرة أو العشرين، وهذا ما يمكن أن نسميه بالبلوغ الفسيولوجى المتوسط، ويختلف قليلاً عن البلوغ الشرعى وهو في فرنسا في الخامسة عشرة بالنسبة للمرأة وفي الثامنة عشرة بالنسبة للرجل، ويرى علماء البيولوجيا أنه يجب الانتظار خلال أربع أو خمس سنوات أخرى بعد ظهور الدلائل الأولى للبلوغ قبل حدوث النضج الجنسى الكامل. وهذه الفترة تعبر عن الحد الأدنى للمدة المتوسطة للمراهقة من الناحية العضوية، وتزداد قصرًا كلما زاد سن النضوج تبكيرًا.

دور الهرمونات والفيتامينات: اهتم العلم الحديث كثيرًا بفسيولوجية النمو، وهذا ما أتاح له فرصة تحديد دور الهرمونات والفيتامينات بوجه خاص.

وقد أثبتت الأبحاث البيولوجية التى أجريت منذ عام 1900 أن الغدد الصماء تؤثر بشدة على النمو بالهرمونات التى تفرزها. وكان من أهمية هذه الهرمونات أن استطاع بند Pende تصنيف المراهقين تصنيفًا يقوم على علم الغدد الصماء، وأهم هذه الغدد هى الغدة تحت المخية، والدرقية، والغدد التناسلية والغدد فوق الكلوية.

ويلاحظ أن الغدد ذات الإفراز الداخلى بوجه عام تتضخم خلال البلوغ، ما عدا الغدة التيموسية التى تأتى على العكس منها في الضمور. وفي نفس الوقت تصب هذه الغدد في الدم هرموناتها التى تبدأ في تنظيم المظاهر المختلفة لانتفاضة الجسم. ويحقق مجموع هذه الإفرازات اتزانًا مزاجيًا جديدًا. وقد أمكن منذ عدة سنوات عزل هذه الهرمونات والاحتفاظ بها في صورة بلورات. ويؤثر بعضها على النمو الجسمى الخارجى. وبعضها الآخر على النمو الجنسى،

ويكون تأثيرها أشبه بموجتين متعاقبتين متلاحقتين، هذا ما كان لنا أن نتحدث عن "الموجة" فيما يختص بالمواد الكيمائية التى تنتج بكميات ضئيلة. وهكذا يخضع طول الهيكل العظمى لتأثير الغدة الدرقية والغدة تخت المخية. ثم يبطئ النمو الجسمى ويصبح البلوغ ممكنًا بفضل تأثير نوع جديد من هرمون الغدة تحت المخية وهرمونات التناسل مثل الهرمونات الذكرية التى تفرزها الخصية والهرمونات الأنثوية التى يفرزها المبيض(٦).

وتأثير الهرمونات أكثر تعقيدًا مما كان يتصور في الماضى، فنحن نعرف اليوم أن نفس الغدة، مثل الغدة تحت المخية مثلاً، تفرز عدة هرمونات لكل منها دور خاص به، كما أثبتت التجارب أن كل هرمون يمارس تأثيرات مختلفة تبعًا للقدر الذى يستعمل به. وقد أمكن كذلك التمييز بين عدة مركبات ذات تكوين متقارب، ولم يكن يرى فيها من قبل إلا جسم واحد، فمثلاً إلى جانب الهرمون الأنثوى الذى ينظم ظهور الخصائص الجنسية الثانوية عند الأنثى (La Folliculine) يوجد هرمون أنثوى آخر (La Luteine) ويتدخل في النصف الثانى من الدورة الشهرية وهناك أمر آخر، فمع قيام التوازن بين الغدد الصماء، تؤثر في بعضها البعض، وهكذا نجد أن الغدة تحت المخية التى تبدو كما لو كانت قائدًا للأوركسترا، تؤثر على عمل هرمونات الغدد التناسلية، كما يرتد أى اضطراب فيها على حالة الغدة الدرقية. وأخيرًا توصل البيولوجيون عن طريق تجارب أجروها إلى الاعتقاد بأن التأثير الهرمونى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجهاز العصبى المركزى. وهكذا نرى أننا بصدد نظام هرمونى كثير التعقيد(٧).

ومهما يكن تعقيد دور الهرمونات فإنه لا يكفى وحده "لتفسير" انتفاضة الجسم، فإذا ما نقصت الهرمونات أو زادت، نلاحظ اضطرابًا في النمو، ولذلك كان دورها ضروريًا. ولكن لابد لتأثيرها

---

(٦) ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كتاب "النمو" تأليف مارسيل أبيلوس M. Abeloos من نفس هذه المجموعة.

(٧) ارجع إلى كتاب "الهرمونات" تأليف رى P. Rey من نفس المجموعة.

المنشط من أرض صالحة، ونعنى بذلك الأنسجة والأعضاء التى لابد وأن تصل لدرجة كافية من "النضج" حتى يتسنى للتفتح العضوى من الحدوث بصفة مستمرة وفي حالة النمو الطبيعى، لابد من توافق بين تأثير الهرمونات والوسط النسيجى الذى يهيئ الفرصة لهذا التأثير. وهكذا نرى أن الغدد الصماء ما هى إلا "منظمات للنمو"، لا السبب الحقيقى فيه.

ويقع نمو الجسم أيضًا تحت تأثير الفيتامينات [٦]، التى يستمدها بشكل كاف من التغذية الطبيعية، ولكن الظروف الحديثة للغذاء فى المدينة، خاصة ظروف سوء التغذية الناجمة عن الحرب، قد تؤدى إذا لم نولها كل رعايتنا إلى نقص في الفيتامينات وكذلك إلى إعاقة النمو. ولكن يبدو أن جسم المراهق يتجه بالفطرة إلى سد هذا النقص بميله إلى الخضروات والفاكهة الطازجة وهى كما نعرف غنية بالفيتامينات[٧].

ولعلك ستدهش للقدر البسيط الذى يسهم به الجهاز العصبى في انتفاضة جسم الشاب. والجهاز العصبى المركزى لا يقويه تغيرات هامة بعد سن التاسعة أو العاشرة، وكذلك الحال بالنسبة للجهاز التلقائي[٨] ولعلك تعرف أن تأثيره على حركة الأحشاء يعتمد على التوازن بين الجهاز السمبتاوى والجهاز البراسمبتاوى أو المعدى[٩]. وفى الطفولة، يزيد أثر الجهاز البراسمبتاوى، أما في

---

(٦) خاصة فيتامين A الذى يؤثر على النمو العام، وفيتامين D الذى يؤثر على نمو الهيكل العظمى وفيتامين E الذى يؤثر على النشاط الجنسى.

(٧) ارجع إلى كتاب "الفيتامينات" من تأليف جالو S. Gallot من نفس هذه المجموعة.

(٨) يحوى الجهاز العصبى جهازًا عصبيًا مركزيًا، وهو العضو المنظم للعلاقة بالعالم الخارجى، وجهازًا عصبيًا تلقائيًا، وهو العضو المنظم لعمل الأعضاء، وينقسم الجهاز الأخير إلى جهازين متعارضين هما الجهاز السمبتاوى ويزيد من سرعة ضربات القلب ويثير اللعاب ويبطئ من تقلصات الأمعاء ويرخى عضلات الشرج والجهاز البراسمبتاوى الذى على العكس من الأول، يُبطئ من سرعة القلب ويقلل الإفرازات الغددية ويزيد تقلصات المعدة. وكلا الجهازين، السمبتاوى والبراسمبتاوى، على علاقة وثيقة بالغدد الصماء، وتوجد بعض المواد الكيميائية أو الهرمونات لإثارة عمل هذين الجهازين أو إعاقته – ولدراسة أثر كل من هذين الجهازين في الشكل النفسى= =للفرد، يمكن الرجوع إلى كتاب "علم النفس التطبيقى" لرينيه بينوا "ترجمة محمد زيدان وحلمى عزيز" عن دار الأنجلو المصرية للنشر.

(1) نفس المرجع السابق .

المراهقة وكذلك في سن البلوغ، فيزيد أثر الجهاز السمبتاوى ويرى ماى Emay أن العلاقات بين الكائن والعالم الخارجى تضطرب عندما يظل انقباض الجهاز السمبتاوى ضعيفًا بعد البلوغ.

خصائص النمو في المراهقة :

ويمكننا الآن أن نذكر خصائص النمو عند المراهقين، فهو أولاً واضح "الجنسية" إذ تزيد الاختلافات بين جسم الذكر وجسم الأنثى، بل يكون النمو الخاص بالفتاة أكثر تبكيرًا وقصرًا من نمو الشاب. وثانيًا، يأخذ النمو غالبًا عند البلوغ، شكل يُسمى (50 أزن) على أساسها يمكن تفسير الاضطرابات التى تثيرها لدى الوالدين وأخيرًا، يبدو النمو "كتشكيل" بمعنى الكلمة إذ تتضح الفروق الفردية، أما العناصر الوراثية التى كانت كامنة عند الطفل فتعمد وتحدد معالم مزاج كل فرد. وهكذا يأخذ المراهق شكله، وهذا ما سنجده أيضًا في المجال النفسى.

ولا يعنى هذا التطور الحاسم في الجسم مقاطعة الماضى بأى شكل من الأشكال، ولكن أهمية التغيرات التى تلاحظ ترجع إلى حدوثها في نفس الوقت، ومن مجموعها أو من الارتباط بينها يتم للجسم فيما بين الثامنة عشرة أو العشرين اتخاذ شكل جديد تمامًا.

أمراض المراهقة:

كثيرًا ما يقال إن المراهقة سن حاسمة، إذ تهدد فيها الصحة كل أنواع الأخطار. ودون أن أتهم بالتفاؤل المفرط، يمكننى أن أقرر وجود بعض المبالغة في هذا القول الشائع، لأن غالبية الشباب من الجنسين يمرون في الواقع بهذه الأزمة دون ضرر كبير، وتبلغ نسبة الوفيات في الإنسان حدها الأدنى فيما بين سن التاسعة والثالثة عشرة، ثم يرتفع المنحنى بعد ذلك حقًا، ولكن ليدل على ارتفاع طفيف ولا يرتفع من جديد بشكل ملحوظ إلا فيما بعد المراهقة، فإذا ما فحصنا الإحصائيات عن قرب، نجد أن نسبة الوفيات التى تكبر في بداية الحياة (فى الأولاد أكثر من الفتيات) تقل بالنسبة للأولاد

فيما بين سن السادسة والثامنة عشرة، ثم ينعكس الوضع من جديد. وهكذا يبدو أنَّ الجنس الأنثوى أكثر ضعفًا من الجنس الذكرى أثناء أزمة البلوغ.

ومن بين الأمراض التى تصيب الشباب، يجب أن نذكر الاضطرابات الخطيرة في النمو، وترتبط في أغلب الحالات بسوء تنظيم إفراز الهرمونات. ولننحى جانبًا التأخر الكبير في النمو، ويظهر منذ الطفولة ويتضح في مجموعة من الأمراض العقلية التى تسمى "الضعف العقلى L'Oligophrenie" كالبله، وغالبًا ما يموت المصابون بها عند البلوغ. وهناك أيضًا "القزمية Le nanisme" و"الضخامة Le gigantisme" أحدهما عن زيادة في النمو، والآخر عن نقص فيه، ويرتبطان باضطراب الغدد الصماء، كاختلال الغدة تحت المخية مثلا. وأحيانًا تسرع بعض الاضطرابات المماثلة من ظهور الوظيفة التناسلية أو تبطئ فيها، مع اختفاء الخصائص الجنسية الثانوية واحتفاظ الجسم بأشكاله الطفلية. ويصاحب هذا التأخير الملحوظ في البلوغ إفراط في السمنه ونقص في نمو الأعضاء التناسلية. أما في حالات البلوغ المبكر جدًا، فتكن الأولاد عادة من النمط الهرمونى، أما الفتيات فتكون مفرطات في السمنة.

وقد وجد الطب في الهرمونات علاجًا جديدًا وفعالاً للقضاء على أمراض النمو، وذلك باستخدام إفرازات الغدد الصماء للحصول على المواد التى تنقص المريض الشاب، ويؤدى امتصاص الهرمونات التى تناسب الحالة إلى الشفاء في أغلب الأحيان، بل وإلى ظهور الدلائل الطبيعية للنمو الجسمى وكذلك ظهور الخصائص الجنسية الثانوية.

وفيما عدا اضطرابات النمو الجسمى والعقلى، لا يوجد إلا مرض واحد شديد الخطورة ويهدد المراهقين بصفة خاصة، وهذا المرض هو السل، فقد وجد أن بداية البلوغ هى اللحظة التى تلائم ظهور هذه الإصابة بأشكالها الخطيرة، أكثر من أى سن أخرى، ومن هذه الأشكال "السل السريع" مثلا. ولكن ما تعليل ذلك؟ ليس هناك

حتى الآن تفسيرات مؤكدة، ولكن الإجهاد، وأسباب الحياة القاسية لها أثرها بلا شك، وكذلك التغيرات التى تطرأ على الجسم في هذه اللحظة، فربما كانت تهيئ للسل تربة خصبة.

ولن أفيض في الجانب المرضى للنمو، فهذا هو مجال الطبيب، وتدور فيه حاليًا أبحاث لها شأنها، ولكن خيل إلى، عند الحديث عن انتفاضة الجسم، أنه من الضرورى أن أشير إليه لاستكمال الصورة. وعلاوة على ذلك، كان الشاذ دائمًا هو سبيلنا إلى فهم الشخص السوى فهمًا جيدًا.

انتفاضة الجسم والتربية:

ولعلك لا تتوقع منى أن ألقى درسًا في التربية، ولكنى وعدت بتحديد كل المشكلات التى تعترض تربية الشباب، ولها فيما يختص بالنمو العضوى جانبان: فأى الوسائل يصلح لقيام نمو جسمى كامل ومتناسق؟ وأى احتياطات نفسية وخلقية يجب اتخاذها إزاء هذه الانتفاضة؟

ويقول أحد الكتاب: كل ما في الشباب حلم، عدا الجوع. ولا تصدق هذه العبارة فيما يتعلق بأهمية شهية الشباب التي لا تقع، فقد وجد أن وجبة الغذاء للولد فيما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة يجب أن تكون بنسبة 10/8 من وجبة الرجل البالغ، أما وجبة الفتاة في نفس السن فتكون بنسبة 10/7 ويعنى هذا أن المراهق يجب أن يحصل على نفس وجبة المرأة، وتقدر هذه بحوالى 10/7 من وجبة الرجل. ويعوق نقص التغذية النمو: وتؤيد هذا الرأى الأقاليم الفرنسية التى احتلت أثناء الحرب العالمية الأولى، كما أنَّ المركز الحالى لفرنسا يثير في هذا الصدد مشكلات خطيرة. ويجب أنْ نعمل على تزويد شبابنا بالغذاء الكافى مع مراعاة الجهود التى يبذلونها أثناء تدريباتهم الرياضية أو عند القيام بعمل عضلى مستمر.

ولنفرد كذلك مكانًا كبيرًا للتربية الرياضية، ولاشك أن فرنسا قد رسخت أقدامها في هذا السبيل، فدخلت الحياة في الهواء الطلق

ضمن ساعات التعليم. ويجب أن نهتم بالتمرينات السويدية والألعاب حتى سن السادسة عشرة، أما بعد أزمة البلوغ، فلنهتم بالرياضة وبأجهزة التربية البدنية، وتقتصر على الأولاد فقط. وكثيرًا ما نوقشت هذه المسألة لمعرفة إذا ما كانت الأجهزة تعوق أم لا زيادة طول الهيكل العظمى، ولم نصل مع ذلك لجواب شاف، ولكن ما أن تقتصر على ما بعد سن السادسة عشرة حتى يمكن استبعاد الخطر المحتمل من استعمالها، وللرياضة الآن المكانة التى تليق بها، ولكن يجب أن نختار منها ما يناسب، فمن بين رياضات القوة، يبدو أن العدو هو أنسبها للمراهقة، وكذلك الرياضة الجماعية التى لا تستلزم جهدًا متواصلاً كما هو الحال في رياضات القوة والتى تتيح فرصة للراحة لكل فرد من أفراد الجماعة. وتلائم التمرينات الرياضية المرأة أقل من الرجل، إذ إن نتائجها فيها أقل من نتائج الرجال كما أن هذه النتائج تتناقص بسرعة. ومع ذلك، تبدو بعض الرياضات الجماعية مثل التنفس، صالحة للجميع، بينما لا تناسب رياضات أخرى مثل كرة القدم وكرة اليد الشباب، أما كرة السلة، وهى أقل خشونة وأكثر مرونة، فهى تتفق أكر وإمكانيات الشباب.

ويخشى من التربية البدنية والعمل المهنى أن يؤديا إلى إجهاد خطير إذا لم تحسن رقابتهما. ولذلك أقيم منذ قرن، في الصناعة، تشريع يتلافى الأخطار التى تتعرض لها الأيدى العاملة من الأطفال والشباب. وكذلك يلزم للتربية البدنية إشراف طبى مستمر، فإذا ما أهمل، فإنَّ المراهقين يبذلون بوحى من كرامتهم وتحت تأثير حبهم للمنافسة، جهدًا يفوق طاقاتهم، وإلا تعرض هيكلهم العظمى للتشويه، كما يؤدى الإجهاد المستمر للقلب إلى أمراض القلب.

ولا تقل الاحتياطات النفسية أهمية، فإنَّ النمو، خاصة عند البلوغ، يداهم الشباب. ويزيد من قلقهم بقدر ما يصاحبه عادة من دوار وإحساس بالتعب وصداع. وقد يؤدى إلى إثارة بعض الأوهام وكذلك اضطرابات عقلية أكثر خطورة. ولذلك يجب أن نخطر المراهقين بكل التغيرات التى ستحدث لهم حتى لا يبالغوا في تقديرهم لها، وسنرى أنَّ بعضهم سيعتقدون أنهم من الشواذ، ولذا كان من

الواجب أن نهدأ من روع بالغى الحساسية منهم، الذين يؤلفون قصصًا حقيقية عما يجرى لصحتهم.

والتحذيرات والنصائح الأولية ضرورية وبخاصة للفتاة التى يجب أن تعرف، وهى في حوالى الحادية عشرة أو الثانية عشر من عمرها أنَّ الطمث سيأتى يومًا، وقد يسبقه بعض التوعك وذلك حتى لا ترتاع عند ظهور الدم الأول. وهذا هو دور الأم، وعليها ألا تتخلى عنه إذا كان لها طفلة توشك على المراهقة، فالأم التى لا تحذر ابنتها في الوقت المناسب عن عدم مبالاة أو مبالغة منها في الحرص، تعتبر آثمة، وعليها أن تنتهز الفرصة للتحدث عن الأمومة، أما فيما بعد فإن مادة رعاية الطفل تزود كل فتاة بمعلومات كافية. وأخيرًا، تسمح المحادثة التقليدية التى تجرى قبيل الزواج، للأم أن تمد ابنتها بالمعلومات اللازمة للحياة الزوجية.

أما الأب، فعليه واجب ممثال نحو ابنه، ففى حوالى سن الثالثة عشرة تكفى الابن بضعة كلمات حتى لا يتسبب تغيير صوته في بعض القلق له، أو حتى لا يعتقد أنَّه قد وصم بظاهرة الانتصاب أو الاستمناء الليلى. وكذلك على الأب، أثناء مراهقة ولده ألا يتردد، إذا ما حانت الفرصة (وكثيرًا ما تحين إذا ما أراد هو ذلك) في توجيهه وتحذيره من العادات الخطيرة.

وقد طال اعتبار المسائل الجنسية من المحرمات، وإحاطتها بالأسرار ومع ذلك تضطرنا أهميتها للحياة إلى أن نـأخذها في اعتبارنا في التربية. فعلى الوالدين، أو على المربى إذا ما ترك له الوالدان هذه السلطة، دور حساس وهام، ومع ذلك فعادة ما يهمل هذا الدور. فإذا ما تم أداؤه بمهارة وفي بساطة مع الحفاظ على ثقة الشباب، كان ذلك سببًا في قيام الاتزان العقلى الذى قد تعرضه انتفاضة الجسم للانحراف بشده ويمكن الاعتراض على ما يسمى، بعبارة قد تكون خاطئة، "بالتربية الجنسية" ومع ذلك لا يمكننا إنكار أهميتها. فإذا ما ترددت في مواجهة هذا الموضوع مع أحد أولادك، فعليك أن تتساءل إذا ما كنت تفضل أن يحدثه عنه زميل له سيىء

السلوك، أو أن يُصَادفه عرضًا في إحدى قراءاته المحرمة. وإنى واثق الآن أنك ستدع عنك التردد.

والآن وأنا أنهى هذا الموضوع، يعترينى بعض الخوف. فهل شاهدت جيدًا انتفاضة أجسام الشباب، بقوتها وجمالها رغم كل التفاصيل العددية وكل أنواع الفشل التى تتعرض لها هذه الانتفاضة عند المرضى منهم؟ فإذا كانت الصورة قد تشوهت بالتعقيد، وهذا خطأ منى فعليك أن تتذكر المراهقين الذين تصادفهم في الطريق، وهم أشبه بالسيقان الفارعة اللدنة التى تحس أنها تمتلئ بالعصارة، ويحقق لها الشباب الصفاء والنضرة الجميلة. ولتقرأ في "الأوديسا" هذه الكلمات الأولى التى نطق بها أوليس إلى نوسيكا: "عندما أراك، أحسب أنى زرى نخلة كانت بالقرب من معبد أبولون في دبلوس وتصل الأرض بالسماء في انتصاب وقوة".

2) انتفاضة القلب

ولنترك المجال العضوى لندخل في المجال النفسى. ولكن ألم نطرقه من قبل؟ إذ إن وجوهنا تفصح في الواقع عن مشاعرنا وميولنا، بل ولكل حركة تبدر عن عضلاتنا، ولكل وضع مألوف لنا معنى نفسى يجتهد الفنان في الاهتمام به، ويحاول عالم النفس أيضًا ألاَّ يفوته، وبعبارة أخرى، يكون الجسم بطريقته الخاصة "تعبيرًا" عن الحياة النفسية، ولا تبتعد المراهقة عن هذه الحقيقة. ولكن رغم الارتباط الوثيق بين النشاط النفسى والنشاط العضوى، فإنهما لا يمتزجان، ولذلك سيجعلنا الطريق الثانى الذى سنسلكه على صلة بمجال الوظائف العقلية التى تتمثل في أكثر العلاقات بالجسم ظهورًا، ونعنى به الوجدان.

ويرى المفهوم الشائع أنَّ الوجدان يؤدى فى المراهقة بالحب، ولكنا نرى في الواقع شيئًا أعقد من هذا بكثير، فإنَّ قلب الشاب. لم يعد هو نفس قلب الطفل مضافًا إليه الحب. ولكن ترتبط نشأة الحب

بتنظيم جديد وعميق للدوافع والعمليات العاطفية من خلال نمو يأخذ – كما حدث في الجسم – شكل انتفاضة حقيقية.

دعامات الطفولة: وتتوفر في الطفولة دعامات قوية توجه النمو اللاحق لها، وهذه الدعامات هى المزاج، وهو عامل فطرى ينظم منذ سنوات الحياة الأولى، مجموعة الانفعالات الأساسية، ويبدو التناقض واضحًا في هذا الشأن بين ردود العقل العاطفية عند الطفل السقيم الجبان، وردود العقل عند الطفل القوى المشاكس. وقد يحجب الاضطراب البلوغى لبعض الوقت تأثير المزاج الذى يظل مع ذلك قائمًا، وهكذا لا نستطيع أن نتعرف تمامًا على المراهقة إلا إذا كنا على إلمام بماضيه. وللمتاع العاطفى في الطفولة دعامة أخرى، وقد تبدو لنا قليلة الاختلاف، ولكنها مع ذلك ليست قليلة الأهمية، وتضم إلى جانب السعى وراء اللذة التى يقوم عليها الحب، مجموعة العواطف التى تنشأ فى الوسط العائلى والوسط المدرسى، فإن الاندفاعات العاطفية في الطفولة المبكرة، أى فيما قبل سن الخامسة أو السادسة، وكذلك التجارب الملائمة وغير الملائمة التى تؤدى إليها، تترك في اللاشعور "عقدًا"، وهى طاقات، وفى نفس الوقت فقط ضعف في الجهاز النفسى، تثقل على سلوك الفرد رغما عنه. وهذا ما يلاحظ عندما ندرس أصول مرض عصابى يظهر في المراهقة أو في سن النضج. وأخيرًا، تقع خلال الطفولة الدلائل الأولى للحياة الجنسية.

ونكون مبالغين إذا اتبعنا كل تفسيرات فرويد، فإن تصفيتها واجبة، وهذا ما يحدث فعلاً منذ عدة سنوات، ولكن دون أن نخلط بين ما هو جنسى Sexuel وما هو تناسلى Genital يبدو مستحيلاً علينا أن ننكر أن للطفل نصيبًا من الحياة الجنسية أثناء طفولته الثانية، أى من سن الثالثة إلى سن السادسة، ولا معنى لهذا التبكير عند الإنسان، فلعلك تعرف أن للقرود مثلا سلوكًا سابقًا لظهور الجنس قبل سن البلوغ بعدة سنوات، ولا يقتصر مثل هذا السلوك على القرود وحدها. ثم يهدأ الحماس الجنسى فيما بين سن السادسة والثانية عشرة،وهذه هى مرحلة "الكمون" التى يتحدث عنها علماء

التحليل النفسى، وفيها تنمو العواطف بدون أى اتصال جسمى بين الصبية والفتيات أو بين الأطفال من نفس الجنس. وهكذا "يستيقظ" الدفع الجنسى في المراهقة ولا نقول "ينشأ". فإلى أن يأتى البلوغ، يرافق هذا الدفع النمو فقط ويسير عليه، ولكنه منذ هذه المرحلة تتحدد معالمه وتثبت.

الغريزة الجنسية: وأول تجديد يتم في وجدان المراهقين هو ظهور الغريزة الجنسية(٦) التى تدخل طورها الفعال منذ قيام الوظيفة التناسلية، وهى أحد المظاهر المثيرة إذ ربما تكون الفرصة الوحيدة التى يمكننا أن نلاحظ فيها تفتح غريزة جوهرية عند الإنسان، هذا إذا ما أبعدنا غريزة الأمومة التى لا تفقد صلتها بها. وتظهر هذه الوظيفة في لحظة تكون فيها الحياة النفسية على قدر كبير من التطور بعد أحدثت فيها التربية أثرها البالغ. ولا شك أن لهذا السبب يعتبر تفتح الغريزة الجنسية لحظة عسرة، وتتعرض أكثر من غيرها لكثير من الأزمات، ولهذا السبب أيضًا، تقوم أمام دراستها عقبات يضاعفها الكبت الذى تفرضه الحياة الاجتماعية، وكذلك كتمان الشهوة. فلا تدهش إذن إذا ما لاحظت عدم كفاية الدراسات التى خصصت لها.

وتظهر النزعة الجنسية عند البلوغ ولها كل الخصائص الرئيسية للغريزة، أى كنزعة أولية لا شعورية موجهة، فيحس المراهق بحاجات جديدة لا تزال غامضة عليه، ورغبات قوية غير محددة تدفع للخروج من إطاره وتمهد لميله للجنس الآخر. ويصيب التذبذب سلوكه، وهذا ما يدهش له الأشخاص المحيطون به بنيما لا يدهش هو به وتنتابه دفعات مفاجئة من الانعطاف، ونوبات من الانطواء لا يمكن تفسيرها وحركات غير لائقة تملأه أحيانًا بالخجل. وهكذا يكون تأثير الغريزة الجنسية فى أول أمره خفيًا وتوجيهها مترددًا ولا يتفق مع الأساليب الوجدانية

(٦) وسأستعمل "لفظة غريزة" ولو أن مدلولها أخذ يفقد وضوحه منذ عدة سنوات، وذلك للتأكيد على الجانب النوعى والوراثى في هذه النزعة.

السابقة لها، وتسبب القلق للشخص الخجول، وتصيبه بما يشبه الحيرة والذهول وكأن قوة تعمل بداخله وتوجهه إلى هدف لم يتضح له بعد جيدًا.

ويصاحب ظهور هذه الغريزة صحوة حقيقية في الحس الذى يضاعفه الخيال بكثير من الزخارف والنزوات. وسبق للطفولة الأولى أن عرفت اللذة الجامحة عن طريق الحواس، خاصة باللمس والذوق. أما عند البلوغ، فتنمو مجموعة كبيرة من اللذات التى ترتبط إلى حد ما بالحياة الجنسية، فيميل الفتية والفتيات إلى العطور القوية التى تدور بها الرأس، وتحتل مكانًا بارزًا في زينتهم، ويصبح الفرد حساسًا إزاء رائحة الشعر والجلد التى تسبب له نشوة جميلة، كما يبعث السرور في نفسه اتساق الألوان وجمال الأشكال، في الجسد العارى خاصة، وطراوة اللحن أو الإيقاع الجديد. وتوحى إليه باللذة القراءات والأفلام والأسرار التى تصل إلى أسماعه همسا. وقد ثبت من تجارب أجريت أن هذا يرجع لاهتمام عاطفى ببعض الإحساسات أكثر من تقدم حقيقى للحس. وقد ينمو عند بعض الأفراد تيار عكسى، فيقاومون هذه الإثارة اللا إرادية لكيانهم كله، وذلك حبًا منهم في الطهارة. وغالبًا ما يوجد التياران متجاورين، فيمر نفس المراهق من أكثر الصور طهرًا إلى أكثرها إثارة. وهكذا تثير الغريزة الجنسية في الشبان بوجه خاص، وعند الحدود النامية لشعورهم، ما يشبه "أمواجًا متلاطمة" من العشق.

وتمارس هذه الغريزة أثرًا فعالاً وتصبح مصدرًا للانفعالات التى ترتبط مباشرة برغبات ناشئة في كيان المراهق. ولكن تأثيرها غير المباشر يكون كبيرًا أيضًا، فتغير بوجودها الحياة العاطفية في مجموعها تدريجيًا حتى إنها بعد أن كانت لا تشغل في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إلا جزءًا محدودًا من الإحساس، تنتشر بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات، وهكذا يتجه الوجدان كله، ومن قبله الجسم، إلى الجنس.

الانفعال المتزايد: والتجديد الثانى هو رجوح كفة العاطفة، ويرجع لثراء الحياة الانفعالية والخيال.

ومن المعروف أن الشباب من الجنسين يتأثرون بسهولة أكثر من الأطفال الذين لا يتعدون الثانية عشرة؛ إذ تكفيهم أحيانًا كلمة أو تلميح أو حركة لتقوم عاصفة هوجاء. كما تحمر وجوهم للاشئ خاصة إذا كان هذا اللاشئ يشير إلى المجال الجنسى، وقد يؤدى الخوف من الانفعال إلى مرض "الخوف من الاحمرار L'ereutophobie" الذى تعرفه العيادات النفسية. وتمر بالفتيات عند البلوغ نوبات من الضحك الهستيرى والبكاء بصوت عال، إذ إن الاضطراب الانفعالى لا يؤثر فقط في الأفعال والحركات، ولكنه يشل النشاط العقلى أيضًا، وهذا ما يلاحظ عند الأفراد الذين يخشون الامتحانات وهكذا يتميز النصف الأول من المراهقة بزيادة في الانفعال يضاعف من حدتها عدم استقرار مزاجى كبير، ويظهر خاصة عند الفتيات.

ويزيد عدد الانفعالات ويزداد عمقها أيضًا، ويرجع هذا كما رأينا، إلى قيام الدفع الجنسى من جهة، ومن جهة أخرى كنتيجة للاتصالات الاجتماعية الكثيرة المتنوعة. ويتغير تعبيرها أيضًا ويتعقد، وهكذا يتطور غضب الطفل إلى حد الاستنكار، ويستبدل الإشفاق بالرحمة. وقد يحدث أن تكتسب بعض الحالات العاطفية نغمة مرحة وحزينة فى نفس الوقت. والاكتئاب الذى قلما يعرفه الطفل، وهو أحد الانفعالات المزدوجة التى يتميز بها من الخامسة عشرة، ويرجع إلى حزن لا سبب له، وتراخٍ وانتظار يشوبه القلق، كل هذه الأشياء التى لا تخلو من السحر لدىً المراهق والتى تبدو ذات علاقة بانخفاض توتره النفسى.

ويخضع التغير في الحياة الانفعالية لتنظيم هرمونى جديد، وكذلك الجهاز العصبى التلقائى. وبفضل هذين الجهازين، يبدو الجسم وكأنه قد زاد تأثرًا بانفعالات جديدة لا تظهر إذا ما توقفا عن أداء دورهما.

ولا تعتقد أن هذا التزايد في الانفعال يشعر الشباب دائمًا بالتوجس والخوف. ولا شك أنهم يظهرون بسببه أقل اتزانًا من الأطفال الذين يبدون لنا غير مبالين أمام أكثر المشاهد إيلامًا. كما أنه أحد مصادر "الخجل" الشائع عند المراهقين حتى إن لاكروا J. Lacroix يرى فيه سلوكًا مميزًا لإحدى فترات نموهم. ولكن لا تنس أن هذا الفيض من الانفعالات سرعان ما يجد ما يقابله من "ضبط النفس" المتزايد. ولما كان المراهق لا يقوى على تحمل الانفعالات القوية المتنوعة، فإنه يصير أكثر قدرة على الكبت وكبح جماع عاطفته – وهذا ما يعنى إن إرادته تقوى. ويميل بعض الشباب في هذا السن إلى اللامبالاة. ولا تجد هذه اللامبالاة ما يضارعها إلا عند الفتيات اللاتى يحتفظن بورودهن في مأمن من أعين الغرباء. ومع ذلك يبدو أن الدفع الانفعالى لا يقوى عند جميع الأفراد، وأنه لا يغمر الشعور كله بصفة مستمرة إلا في بعض الحالات المرضية.

خيال الشباب: ويدهش لزيادة الخيال أقل المراقبين دقة. ففى الطفولة الثالثة، يكون الذكاء في جوهره عمليًا، فيقتصر الفضول على مجرد الأشياء والمعلومات. أما عند البلوغ، فيصير ذاتيًا، وكذلك قادرًا على البناء وإقامة العلاقات القوية، ويعتمد على ذكريات عديدة وقراءات يشيد بها عالمًا من المشروعات والتوقعات. وبينما كان الطفل يعيش على حاضر، ينظم المراهق فكره التوقيت النفسى في اتجاهى الماضى والمستقبل. ويقتصر النشاط الارتقابى على مجرد الاهتمام بالحاضر، ومن هنا يكون تكيفه بالواقع ضعيفًا. وعلاوة على ذلك، تزيد قدرته على التصور العقلى لشخص أو لمشهد ما حتى إنه يكاد يخلط بين الحقيقة والخيال. وتستطيع الفتيات خاصة أن تعشن على "أحلام اليقظة" في غمار الحياة اليومية. ويلاحظ كذلك أشكال مختلفة من "جنون الكذب Le mytnonanie" في صورة خيال كاذب. وينتاب الحقيقة في المراهقة تشويهًا كبيرًا، إذ أنها تفسر من خلال أفواج من الصور تجعل شهادة الشباب في حاجة دائمًا للإثبات، ويعمل خيال الشباب على الربط عن طريق التقليد بين عناصر حقيقية ليضع منها جديدًا، وذلك بطريقة آلية وصفها

تارد Tarde الذى كان يرى في هذا الإبداع "تفاعلا بين أنواع من التقليد" ويبدو أيضًا أن أبسط الهزات العاطفية تتسبب تلقائيًا فى إخراج مجموعات من الصور. وأخيرًا، يقوم نشاط تصورى يكون تحت تصرف الوهم.

ويحب الشباب المجهول والتجديد اللذين يخضعان لنزواتهم أكثر من معطيات الخبرة. ويظهر حبهم لقصص المغامرات فيما بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة، وكذلك حبهم للرحلات التى يجدون فيها نوعًا من الاكتشاف. ثم تبدو لهم المغامرة كعملية خارجية، ولذلك يبحث خيالهم عن أساليب مختفية في الشعر الغنائى أو الرمزى وفى القصص العاطفى. وهذه هى أفضل اللحظات للخيال وقصور الرمال والأوهام التى تعتز بها الفتيات خاصة، وكلها تجعل التكيف بالحياة عسيرًا ويخشى منها على تزييف الحكم في بعض الرءوس الضعيفة.

ولكن هل هذا هو عالم العجائب الذى يظهر في سن الخامسة؟ وهل يجب اعتبار هذا التفكير الخيالى أقل مرتبة من التفكير العملى في الطفولة الثالثة؟ لا بل ويجب التفرقة بعناية بين النشاط الطبيعى في خيال المراهق وأشكال النكوص عند المصابين بالعصاب. وهذا النشاط غنى بالإمكانيات الجديدة في مجال الاختراع والتعبير، ويستخدم كوسيلة لبلوغ التقدم الفكرى. فإذا سلمنا مع جيوم P.Guillaume أنَّ الخيال أكثر من عملية الذكاء نفسها مميز للإنسان، لكان علينا أيضًا أن نرى في المراهقة مرحلة أساسية من مراحل النمو.

ويمكننا أن نقتنع بذلك إذا ما لاحظنا ارتفاعًا ملحوظًا في مجال الخيال الخلاق، وبخاصة في مجال الفن، إذ يتذوق المراهق الصور الشعرية، ولما كان أكثر إحساسا بجمال الأعمال الفنية، فإنه يسعى إلى التخلص من شحنته من الصور في محاولات أدبية وفنية وموسيقية يُظهر فيها، إلى جانب بعض التقليد المتهور، ألوان من

التوفيق الشخصى. وهكذا يمكننا القول إن الخيال يسمح للشباب باكتشاف نفسه واكتشاف الآخرين والحدس بالعالم والحياة.

وقد يكون خيالهم في الواقع على شيء من السذاجة وعدم الثبوت إذ تتجمع صورهم كمخططات دائمة التغير، ولكنها فورة من الصور تحيط ببعض الدوافع مثل الحب والحياة التى يهدف إليها، إلخ ... وهكذا كان الاعتقاد بثراء هذا الخيال، فهو يتزايد بلا شك، خاصة لدى الفتيات اللاتى لا ينتهين من نسج القصص حول عدد صغير من الموضوعات. ومع ذلك، فهو في الحقيقة لا يكون أكثر تألقًا أو أقل شططًا. وأنسب الفترات لهذا الخيال هى الفترة التى تمتد ما بين سن السابعة عشرة والعشرين.

وأشكال خيال المراهق متعددة، وتتراوح بين الحلم والرمزية الصوفية. وأبرز هذه الأشكال هو بلا شك "أحلام اليقظة" التى تصير أحد أساليب التفكير، ويفضل هذا الأسلوب عند البلوغ. ويظهر فيه أثر انفعال بسيط يؤدى إلى خلق الصور الأولى، ثم يجنح بها الخيال بعيدًا عن التفكير الذى يتدخل بعد ذلك بالربط بين النزعات والذكريات والأفكار، وكأنه بذلك قد انزلق على سفح منحدر يؤدى به إلى عالم نصف خيالى ولكنه يتفق دائمًا تمامًا مع الحالة العاطفية الراهنة.

سن العاطفة: وتوضح لنا انتفاضة الوجدان وكذلك انتفاضة الخيال لماذا تعتبر المراهقة أنسب سن للعاطفة، ولما كان الانفعال قريبًا جدًا من كيان الفرد، كان في العادة مصدرًا للاضطراب ولكنه سرعان ما يختفى، وما أن يمتد بالصور العقلية إلى المستوى الذهنى من الشعور، حتى تهيئ له هذه الصور بعض الاستقرار عن طريق التذكر. وما العاطفة إلا نتيجة الجمع بين العناصر الانفعالية والعناصر الخيالية، وتظهر عندئذ كمنظم لحياتنا الوجدانية، وتختلف عن الانفعال إذ تؤدى حركة التعاطف مع شخص ما مثلاً إلى عدة انفعالات ترتبط فيما بينها بنسيج من الذكريات والمشروعات والأحكام لتكون قصة، هى العاطفة الدائمة في صورة صداقة.

والعواطف هي الثروة النفسية الحقيقية عند المراهقين، وتبدو عند الطفل وقد تكونت من انفعالات شديدة وعنصر ضعيف محدد من التصور. أما عند المراهقين، فتمتاز بنصيب كبير من التصور، وبفضله يمكن لكل اهتزاز انفعالى أن يخلق عاطفة لها قدرها.

ويتم خلال المراهقة إعادة تنظيم للعالم العاطفى، فتكتسب العواطف القائمة فيه مثل حب الذات وعاطفة البنوة، خصائصًا جديدة، فيزدهر التعاطف في أشكال متعددة من المودة، كما تظهر عواطف أخرى مثل الحب والكره والاحتقار من الإعجاب والحنين، بالإضافة إلى "عواطف سامية" مثل حب الجمال، وعواطف أخلاقية وأخرى دينية. ولن نستطيع دراستها كلها، ولكنا سنصادف معظمها في دراستنا هذه. وستكون الصداقة والحب أكثر العواطف تميزًا، ويمكنهما وحدهما أن يعطيانا فكرة كافية عن انتفاضة القلب.

خصائص العاطفة في المراهقة: ويسمح لنا التحليل الإجمالى الذى حاولنا القيام به، أن نحدد الخصائص العامة لوجدان المراهق مع مقارنته بوجدان الطفل.

ووجدان المراهق أكثر عمقًا، فالشاب أقل تلقائية وتعبيرًا عن نفسه من الطفل. ويقوم بين الهزة الانفعالية ورد فعل الأنا، نشاط عقلى يزداد تعقيدًا كلما قويت عوامل الكف وبينما كانت الحياة العاطفية عند الطفل تدور في سطحية وبالإشارة المباشرة، تزداد عمقًا وتكتمًا لدى الشباب الذين يمكنهم إخفاؤها بمهارة أو التعبير عنها بقوة. ويبدو لى هذا الخلاف بين المستوى الداخلى والمستوى الخارجى، ونجده أيضًا فى مجالات أخرى، كأحد الخصائص الأساسية في الجهاز النفسى عند البلوغ.

ويصير المراهق كذلك أكثر إلمامًا بإحساساته، ومن قبل كان قلما يحتفظ بالرغبات والانفعالات والعواطف على ضوء من التفكير،

ولكنه، منذ هذه اللحظة، ينظم تحليله الداخلى ويزيد تقدمًا في مجال العاطفة التى تمده بالعناصر الأولية اللازمة له.

ويتخذ الإحساس لدى المراهق صفة "الشغف Passion"، وقد أعلن رُوسُّو في كتابه "إميل" عن قدوم "سن الشغف"، ويكرر شاتوبريان نفس الشيء. ولكن ماذا يجب أن نفهمه من كلمة "شغف"؟ إنها تعنى أولا عاطفة قوية متزايدة يمكنها أن تغزو مجال الشعور كله وأن تعطل كل الطاقات وأن توجه السلوك كله، وهذا ما يرى في أنواع الحب والكره عند الشباب. ولكن هذا لا يكفى، إذ يمكننا أن نتحدث أيضًا عن شغف الأطفال باللعب مثلاً، وهكذا يبدو أنه يلزم للشغف أن يكون الفرد مالكًا لكل إمكانياته من اللذة والألم، ويكاد يظن أن نمو الغريزة الجنسية هو الذى يسمح للشباب بمد عواطفهم بكل هذه القوة وهذا العنف اللذين يميزان وجدانهم عن وجدان الطفل، وقد رأينا كذلك إن إحساسهم يزيد امتدادًا تبعًا لاتساع الأفق الاجتماعى الذى كان من قبل محددًا في نطاق الأسرة والمدرسة. وأخيرًا، نجد أن هذا الإحساس يختلف شيئًا فشيئًا تبعًا للجنس كما أوضحنا من قبل عدة مرات.

ولعلك قد لاحظت أنه من الصعب، بل من الزيف، أن نحاول تحديد مركز الحياة العاطفية عند الشباب من أنواع النشاط الأخرى لديهم. فقد قادنا الحديث عن انتفاضة القلب إلى معرفة نصيب الخيال منها، ولكى تتضح لنا الرؤيا يجب علينا أن نتجنب كل محاولة قديمة للفصل بين هذه الأنواع من النشاط، فإن الإحساس عند المراهق يسخر، أكثر من كل الأنواع الأخرى من الحواجز الثابتة، فهو يحيا بالخيال، ويغمر بدوره الخلق والذكاء والإرادة، كما أنه مركز كل تطور يتم، وهذا هو آخر خصائصه وأهمها، وهذا أيضًا هو السبب الجوهرى الجديد الذى يجعلنا نبدأ به رحلتنا النفسية للاستطلاع.

الصداقة عند الشباب: ولكى يمكننى الحديث عن جدارة عن صداقات الشباب وعن الحب الوليد عندهم، يجب أن أكون شاعرًا، وشاعرًا مبرزًا، ولكنى لست كذلك، ولذلك فبدلاً من إجهاد نفسى بما

لا طاقة لى به، يحسن بى أن أجتهد في إظهار أى الأشكال تأخذ هاتان العاطفتان الأساسيتان في المراهقة، وأى المشكلات تتسببان فيها.

ولنبدأ بالصداقة ما دامت هى التى تسبق عادة الحب.

وغالبًا ما تكون العلاقات التى يقيمها الطفل خارج نطاق الأسرة غريزة عرضية أساسها اللعب. وقد تنشأ هذه العلاقات بحكم الجيرة أو العادة، ولكنها قلما تستمر بعد الافتراق، وتسهم في إشباع الحاجة إلى الحياة الاجتماعية، وتظهر في الطفولة الثالثة، وتؤدى عند الأولاد إلى تكوين الجماعة، فيأخذ التعاطف بين الأطفال من نفس السن شكل زمالة، أما بالنسبة لشخص أكبر سنًا، فيكون أشبه بعاطفة البنوة. أما الصداقات في المراهقة فتقوم على العكس من ذلك، على الاختيار والريبة والملكية المطلقة، وتتعرض لكل هزات الحب، ومنها الغيرة. وهذه الصداقة أقل نفعية من صداقات البالغين ولا تسمح بالحساب إلا نادرًا. ويمكننا أن نرى فيها دفعة لا تقاوم من التعاطف تظهر للتعبير عن مشاركة عاطفية وعطف فعال.

وهناك على الأقل ثلاثة أنواع من الصداقة عند الشباب، وتقوم غالبًا بين الشباب من نفس الجنس والسن، في المدرسة مثلاً. أما الاختيار، ولا يجد تبريرًا له إلا فيما بعد، فينشأ عن اندفاع لاشعورى لاحق لظروف عرض، كإفشاء سر فلت من زميل وأتاح لك أن تلمح فيه الروح الشقيقة التى تبحث عنها، أو خدمة قدمها لك في لحظة عسرة. وهكذا تكون الثقة بالصديق، والإعجاب به، والرغبة في امتلاكه، والسعى إلى إظهار العاطفة بالهدايا، والسعادة في بذل التضحية وغالبًا ما يضاف لذلك رغبة حقيقية في التزاوج الروحى والتقمص. ويحاول الصديقان اتخاذ نفس الميول ونفس الآراء، ويظهر التقليد حتى في طريقة قص الشعر أو الخط. وتعبر الرسالات المتبادلة عن حدة هذه الصداقة بعبارات ملتهبة. ولكن قلما يكون هذا الشعور بنفس العمق عند الصديقين؛ إذ إن أحدهما يحب، والآخر يستسلم لهذا الحب. ورغم ما بهذه الصداقة من إلحاح ساذج،

فإنها لا تتردى في الانحراف، وذلك لبراءتها وتعطشها للإخلاص المطلق، ولرقتها البالغة في أغلب الأحيان وقد يقلق الوالدان والمربون لهذه العلاقات القوية ويخشون أن تنتقلب إلى انحراف جنسى، ولكن هذه حالة نادرة لأن هذه الصداقات تنشأ عن طباع رقيقة، مثالية يروعها مجرد التفكير في الإثم، وقد يؤدى الشك من الشخص البالغ إلى تدنيس نقاء هذه العاطفة.

وربما تكون الصداقة التى تقوم بين مراهق وطفل يصغره نوعًا، أكثر تعرضًا للخطر بسبب فارق السن ولكنها قد تكون أيضًا ذات أثر حسن على أصغرهما، فهى توفر له الحماية والتوجيه في عمله، وكذلك على أكبرهما الذى يرى نفسه محملاً بمسئولية أخلاقية، وهذا ما يعطيه فرصة لتأكيد ذاته. ولعلك تعلم بالفائدة التى أمكن استخلاصها من هذا الشكل من الصداقة الشابة في المدارس الإنجليزية ومدارس الجزويت.

وأخيرًا قد نلاحظ قيام عاطفة شديدة بين مراهق وشخص بالغ تعتبر شخصيته لأعين المراهق مثالاً براقًا. ويوجد مثل هذا التعلق خاصة نحو المدرس، في كل البلاد، وغالبًا بين الفتيات، وتمتلئ نفوس تلاميذ المدارس الداخلية بمثل هذه القصص الخفية التى تكشف عنها مذكراتهم، والتى يحرج لها أحيانًا المدرسون. وفي هذه الحالة، ينسب إلى الصديق، وأكثر منه الصديقة، كل أنواع الكمال. ولكن هؤلاء المدرسين هم أكثر الناس فهمًا للشباب وأسراره وآماله، ولذا يكونون في أعين هؤلاء المتعبدين لهم أشبه بأنبياء يكشفون لهم عن قيم الحياة.

وتقوم صداقات المراهقة بدور كبير في تكوين الشخصية بفضل الخبرات التى تثيرها، كما أنها تعد الطريق لصداقات البالغين، وهذه أكثر تعقلاً، أساسها التقدير والثقة المتبادلة، ولكنها تعتمد بل وتهتدى بذكريات عن الشباب المتحمس. ويرى أيضًا في هذه الصداقات أول تعبير عن إنكار الذات الحقيقى. فهى ترغم الفرد على الخروج من نطاق ذاته، وتعتبر كذلك مدرسة يتعلم فيها الإخلاص.

ولكن لنقى أنفسنا من الشطط، فقد تتحول إلى نوع من الوحدة بين اثنين قد تتعارض مع الحياة الاجتماعية الصريحة. وعلاوة على ذلك، فإن المراهق الذى يتعلق بشخص آخر، عادة ما يسقط عليه صورة مثالية لذاته، فهو يراه في الصورة التى يؤديها لنفسه، أو كبديل لنفسه أكثر منه "شخص آخر". ولكن يسقط هذا الوهم فيما بعد، فتموت الصداقة إذا كان الفارق كبيرًا بين الصديق الذى تخيله المراهق والصديق الحقيقى. وحتى في هذه الحالة، تظل ذكرى هذه الصداقة غالية علينا إذ إنها في نظرنا نحن البالغين، تذكرنا بكل ما كنا نتمنى وجوده عند الصديق، أى المثل الأعلى الذى كنا نحمله في أعماقنا.

الصداقة والحب: ولكن ما طبيعة هذه العاطفة القوية التى تخبو أمامها كل العواطف الأخرى؟ وتعتبر هذه العاطفة عادة مقدمة أو صورة غير حقيقية للحب الجنسى. ولا شك أن صداقة الشباب تشبه الحب، وبخاصة في "الغرام" الملتهب بين تلميذات المدارس الداخلية، ويزخر بالقبلات والمداعبات والعناق الحانى وكذلك تنمو هذه الصداقة بسهولة أكثر إذا ما كانت الظروف أو الحالة المزاجية مواتية لتأخير التفتح الجنسى الفعال. وأخيرًا، فإنَّ الحالات التى تهوى فيها الصداقة إلى درك الانحراف في الجنسية المثلية، تعتبر دليلاً مقنعًا على وجود الصداقة التمهيدية أو المولدة للحب. ومع موافقتنا على هذا الرأى، يبقى لنا أن نلاحظ في معظم الحالات، عاطفة من المودة والحنان، تخلو تمامًا من أى مظهر جنسى. فهل يجب إذن أن نذهب إلى النقيض وأن نعترف – كما يعتقد حديثًا – بالتمييز تمامًا بين صداقة الشباب والحب؟ ويبدو أن كلا التفسيرين غير صحيح، إذ إن الصداقة الطبيعية بين الشباب ترتبط تمامًا بنشأة الحب، ولكنها ليست صورة مصغرة له. ولكى نفهم طبيعة الحب يجب أن ندرسه:

أساسان للحب الإنسانى: جاء في "مذكرات" أمييل Amiel:[٦] "إننا نتحدث عن الحب قبل سنوات من معرفتنا له، ونحسب أننا

---

(٦) كاتب سويسرى من القرن التاسع عشر.

نعرفه لأننا نسميه أو لأننا نكرر ما تتحدث به الكتب عنه. وهكذا لا نصادف إلا جهلاً له درجات كثيرة، ودرجات من المعرفة الوهمية" ويمكننا تطبيق هذه الملحوظة على الحياة الفعلية كلها في المراهقة، إذ إن هذه الحياة تعرف الكثير من النشاطات التمهيدية. ولكن هذه الملحوظة صادقة تمامًا فيما يختص بالحب، فإن الشباب من الجنسين يحلمون بالحب قبل أن يشعروا به، ويمكننا أيضًا أن نقول إنهم يعرفون "ترقب الحب" على شرط أن نضيف أن هذا الترقب ليس أملاً في معجزة تقع، بل ترقبًا نشيطًا، فعالاً، يجعل الشباب يسعى دائمًا وراء العناصر الأساسية للحب.

فما هى هذه العناصر الأساسية؟ وأرى فيها عنصرين يعيشان منذ هذه اللحظة، ولكن يلزمهما أحيانًا وقتًا طويلاً كى يتفتحا في وحدة متناسقة، وقد لا يمكنها ذلك على الإطلاق. وهذان الأساسان هما: الغريزة الجنسية وعاطفة المودة.

ولاشك أن نشأة الحب ترتبط بنمو الغريزة الجنسية في لحظة البلوغ ولكن لا يعنى هذا أن هذا الدفع يولد الحب، وأن أحدهما يفسر الآخر ومع ذلك لا يمكننا فهم الحب الإنسانى الطبيعى دون تفتح الغريزة. أما عاطفة المودة التى تزدهر في نفس اللحظة، فهى المكون الآخر اللازم للحب، ولكنها أيضًا ليست هى الحب، بل يبدو هذا الحب كنتيجة ونشاط متميز يجد جذوره في الغريزة والمودة ويتغذى عليهما لكى يفوتهما في النهاية، وهو اتجاه إلى الوحدة وإلى الكمال السامى.

ويمكننا الآن أن نحاول تعريف الصداقة بين اثنين من الشباب من نفس الجنس، بالنسبة للحب. فالصداقة تقوم على أساس من المودة، ومن هنا يكون التشابه بين الحب وإمكانية التحول إلى الانحراف الجنسى أو إلى حب مشوه إذا ما امتزج الدفع الجنسى بالمودة. ولكن إذا ما قويت المودة منذ البداية، فهى تعطى صداقة، ثم يأتى إلحاح الغريزة الجنسية، فيصير الفرد عندئذ قادرًا على أن يحب شخصًا من الجنس الآخر. ويمكن أيضًا لما حدث على التوالى أن يتم

في نفس الوقت فيجد الحب الذى يتفوق فيه الجانب الجنسى ما يوازنه في الصداقة العميقة النقية، ولكن مع شخص ثالث. وهكذا تبدو صداقة الشباب قريبة من الحب، ولكنها تتميز عنه، ومع ذلك يمكننا أن نرى التفاعل السيء بين المودة والجنس يؤدى أحيانًا لدى المراهقين إلى خلط بين العاطفتين.

نشأة الحب عند الشبان: ومع هذا التبسيط الكبير يبدو لى أنه يمكن دراسة نشأة الحب من خلال مشكلات ثلاث: فيجب أولاً أن يتمكن الدفع العضوى من الثبوت على شخص آخر من الجنس الثانى. وبعد ذلك يجب على الغريزة الجنسية وعاطفة المودة تحقيق اتفاق متناسق يسمح بقيام الحب. وثالثًا يجب انتظار نهاية النمو البيولوجى النفسى قبل إنتاج الحياة الجنسية والعاطفية للشخص البالغ. ولما كانت هذه المشكلات تظهر بشكل مختلف تبعًا للجنس، كان علينا أن نواجهها أولاً عند الشاب، ثم نرى ما تختلف فيه عند الفتاة.

سن البراءة: ولا تملك الغريزة الجنسية التى بفضلها يستمر النوع، منذ لحظة ظهورها، نفس الخصائص الملحة ذات الوجهة الواحدة التى ستكون لها فيما بعد. فقد رأينا أنها عند البلوغ تكون حائرة مخدرة، كما لا يمكن أن نعلم وقت بدايتها، وتلزم سنوات عديدة قبل أن ترسخ وتتحدد وجهتها. وتختلف التى تتبعها تبعًا للأفراد، إذ الطاقة الجنسية بدورها النوعى هى في نفس الوقت أكثر العناصر النفسية فردية، ولذلك كان من العسير إيجاد مكان لها في تخطيط عام.

وتظهر الغريزة الجنسية عند الولد في البداية كانتباه للجسم وبخاصة للأعضاء التناسلية التى تصدر عنها الإثارات الأولى. ثم يزيد الفضول إزاء كل ما يتعلق بالجنس، وهذا ما تشهد به قراءات المراهق وأغانيه، ويلاحظ كثيرًا بعض الحيرة على المراهق الشاب وهو في رفقة فتيات من سنه، وقد يعتريه أيضًا شيء من العداء لهن، ومع ذلك تعبر هذه الحركات الخرقاء الهوجاء عن اهتمام جديد بالجنس الآخر. وإزاء تسلط هذه الانفعالات عليه، فإنه لا يتطلع إلى

ما هو أبعد منها. وتستمر هذه المرحلة من سن الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة، ويعبر فيها بالطيش والعدوانية عن رجولته الوليدة، وتتصف هذه المرحلة بظهور تأخر مدرسى مألوف في المدارس تحت اسم "أزمة الصف الثالث" وتلازم هذه الدفعة الغريزية في نفس الوقت حاجة عميقة للحنان، "وهذا هو سن البراءة" الذى يحب الحب ولا يجرؤ عليه وينشد: "لا أعرف أى لهيب قد نفذ إلى أعماقى، فلم أعد أسيطر على حواسى...".

ثم يقوى الاهتمام بالجنس الناعم، وهذه هى اللحظة التى ينتظر فيها الشباب الفتيات عند باب المدرسة، أو صديقة شابة عند خروجها من المكتب الذى تعمل فيه. ويعرفون الغزل، ويحاولون إثارة الاهتمام والإعجاب بهم.

انحرافات الغريزة: ولكن قبل أن يصل المراهق إلى هذه المرحلة، يمر بفترة من البلبلة، فإن الدفع الجنسى يتجه في قوة إلى الجنس المقابل فإذا ما قوى دون أن يجد توجيهًا طبيعيًا له، فإنه يؤدى إلى السعى وراء الإشباع الذاتى في العادة السرية أو "رذيلة الوحدة". وهذا الشكل من العشق الذاتى مألوف في البلوغ، وقد لوحظ من قبل عند بعض الأطفال وكذلك بعض الرضع، ولكنه ينتشر كثيرًا فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة. حتى يكاد يرى فيه بعض الكتاب علامات النمو في هذه المرحلة، التى يرتد فيها النشاط الجنسى إلى جسم الشخص نفسه دون أن يشعر بحاجته لوجود رفيق ويتفشى هذا العشق الذاتى كالمرض المعدى في المدارس الداخلية، لأنه يخضع للتقليد، ويقود إليه الكبار من هم أصغر منهم سنًا، وتتيح له كذلك الحياة العائلية الفرصة عن طريق الأخوة والخدم. وهناك أسباب موضعية تلائم العادة السرية، منها مثلاً كل ما يؤدى إلى الكحة في المنطقة التناسلية وملامستها، كما أن لها دلائل معتادة نعرفها جميعًا: وهى شحوب الوجه وإحاطة هالات بالعين وظهور التعب والخمول وصعوبة تركيز الانتباه، وفى معظم الأحيان يتزايد خجل المراهق ويميل للعزلة وينام نومًا مضطربًا.

وكان يرى قديمًا في هذا النوع من الانحراف الغريزى شيئًا مروعًا، وكان يرجع إليه كل الأحداث العصبية أما لآن، فإن معظم الأطباء تقل قسوتهم إزاءه. ومع ذلك تظل العادة السرية كعادة مرذولة ترهق المراهق وتخلق الوساوس لدى ذوى الطباع الحساسة مع شعورهم بالخجل والإثم، كما تبدو كسبب لبعض الأمراض العقلية، وتشيع عند أصحاب التأخر العقلى خاصة في حالات البله، فتأخذ هنا شكل عادة قبيحة تتم بطريقة لا شعورية. وللعادة السرية أثرها في الاضطراب النفسى، ولكنها ليست سببًا له، وفي الواقع ليست العادة السرية ضارة إلا إذا استمر وجودها لما بعد أزمة البلوغ، فهى ليست إلا انحرافًا وقتيًا للإثارة الجسدية التى لم تتحدد وجهتها بعد. ولكنها عند البالغ تكون سعيًا وراء الإشباع الذاتى الذى يعبر عن نكوص عاطفى يهتم به الطب.

وفى العادة لا يكون هذا الانحراف خطيرًا إذا حاولنا القضاء عليه بالحياة الصحية النشيطة مع تفادى كل أسباب الفراغ والوحدة، وكذلك إذا عرف الأب كيف يحذر ابنه من العواقب التى قد تجرها هذه الرذيلة على مستقبله، ولكن المهم ألا يتصور المراهق أنه قد صار وحشًا لمجرد أنه استسلم للإغراء، فما العادة السرية إلا واحدة من الرذائل، بل ويمكن إصلاحها أسهل من غيرها على أن يجد المراهق بالقرب منه دعامات رحيمة حازمة لا وجودها صارمة قاسية.

وهناك انحراف ثانى أكر خطورة، هو الجنسية المثلية، أى السعى إلى إشباع الغريزة الجنسية مع شخص آخر من نفس الجنس، وتسمى باللواط Le pederastie ويتفق الأطباء لحسن الحظ على ندرتها بين الشباب، ولا تكون المبادأة منهم، بل عادة من بالغ منحرف يبحث له عن رفيق، ولذلك كان من الضرورى أن نُجنِّبْ المراهقين ارتياد الأماكن المشبوهة.

الحب الخيالى والحب الجسدى: فإذا ما ثبتت الغريزة الجنسية بطريقة طبيعية على الجنس الآخر، يجب أن تتوافق مع عاطفة

المودة. ولكن هذين المكونين للحب يتطوران على مستويين مختلفين ويمكنهما البقاء منفصلين لمدة طويلة. ولذلك يشعر الكثير من الشباب بتعلق كبير وعاطفى نحو امرأة أو فتاة، والعواطف التى تعمل في هذا التعلق هى، إلى جانب المودة، الإعجاب الشديد والإخلاص والحاجة إلى فرض الحماية أو تلقيها. وتعتمد اللذة التى يشعر بها الفرد على وجود الشخص المحبوب وعلى اتفاق العاطفتين. ولا تختفى هنا المصاحبة الحسية، ولكنها تقع بالقليل، وتلعب أحلام اليقظة دورًا رئيسيًا في هذا الحب الممزوج بالحنان، ويؤدى إلى احترام المرأة، وقد يأخذ أحيانًا شكلاً صوفيًا، ولكنه لا يخلو من أخطار الأوهام التى يخلقها والتناقض الذى يقوم بين الحقيقة والمثل الأعلى. ولا يكون هذا الحب طبيعيًا عندما لا يكون سوى مرحلة تسبق النمو الكامل للغريزة. ويشيع الحب الخيالى بين ذوى الطباع الرقيقة الذين تفزعهم الطاقة الجنسية ولا يسعون إلا إلى الكمال. ويتحول الحب الأفلاطونى بذلك – مثل العشق الذاتى، إلى حب غير طبيعى عندما يستمر إلى ما بعد المراهقة، إذ قد يؤدى إلى الفصل بين الإثارة الجنسية وعاطفة المودة، فيستحيل ظهور الحب الإنسانى الحقيقى.

والحب في واقعه تَملُّك، وكلنا يعرف أن هذا التملك قد يفشل، وهذه هى الحال عندما تتخلف إحدى القوتين اللتين أتينا على ذكرهما، فنرى فيه أحيانًا مصدرًا للذة الجسمية، وأحيانًا مصدرًا للذة المعنوية. وكلا الاتجاهين خطير، وهنا يجب أن نذكر قوله باسكال Pascal:(٦) ليس الرجل بملاك ولا بحيوان". وفى أحيان أخرى، يتجاور العنصران دون أن يثبتا على نفس الشخص، ومن هنا يكون التراوح والازدواج في الحياة، فلا يقنع الإنسان بإشباع. وكم نرى حالات فشل جزئى عندما يقاوم الشباب فورة الجنس وفعاليته بالهروب إلى العزلة والخجل المرضى، أو عندما يتعلقون بعواطف طفولتهم وعاداتها بل وملابسها أيضًا! ويظهر عند البعض الآخر

(٦) عالم رياضى وطبيعى وفيلسوف وكاتب فرنسى في القرن السابع عشر.

خوف من الفشل في الحب أو الانطواء الحزين بعد الفشل، ويترتب عليهما وساوس خطيرة.

وتتنوع أنماط التوافق بين الغريزة والمودة، وكذلك التوقيت بينهما وهذا ما يخضع للحالة المزاجية والوسط والأخلاق العامة. فمثلاً نرى فى أول الأمر نشأة الرغبة والسعى إلى الرفيق والتجربة الجنسية الأولى وتكون إما ملائمة وإما تترك في النفس امتعاضًا كبيرًا، ثم علاقة أو عدة علاقات تكبر المودة من خلالها، وأخيرًا يكون الزواج.

وعادة لا ينتهى تنظيم الوظيفة الجنسية بنهاية المراهقة، ويكون أكثر تبكيرًا عند العامل منه عند الطالب. ويكون ظهوره المبكر كنوع من الاختبار يصلح لتحديد شكلين لوجدان الشباب، بل وربما أسلوبين جوهريين للنمو سنحددهما فيما بعد (٦). ويبدو أن المبادأة المبكرة ترتبط بتطور متدرج وخيال ضعيف نسبيًا. أما المبادأة المتأخرة على العكس، فتكون كخاتمة للنمو عن طريق ظهور هزات مفاجئة وحماس فياض في الخيال العاطفى.

وهكذا يأتى الحب القوى تارة بالرغبة وتارة بالمودة، ولكنه لا يزدهر إلا مع التنسيق بين الاتجاهين، فإذا لم يقم هذا التوفيق الحساس، فلن تكون هناك إلا حلول عرجاء مهزوزة يطلق عليها اسم الحب، ونجد صورًا عديدة له في المسرح والقصص المعاصرين.

البلوغ وسن الزواج: بقيت لنا مشكلة ثالثة، أقل تعقيدًا ولكنها حساسة، فقد رأينا وجود فترة من عدة سنوات بين ظهور التهيجات على الجسم واللحظة التى يصلح فيها الفرد للزواج، أى بين سن البلوغ Le Puberte وسن الزواج La Nubilite، وتبلغ هذه الفترة حدها الأدنى عند البدائيين، إذ يكاد يعقب الزواج عندهم البلوغ، ولكنها تطول في المدينة الحديثة إذ لا يستطيع الشاب بعد البلوغ مباشرة أن يؤسس بيتًا أو أن يعول أسرة، ومن هنا كان الاتفاق على قيام فترة

(٦) فى الفصل القادم.

بين حاجات الجسم والضرورات الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية، وهى فترة من الانتظار القاسى، ولكن لحسن الحظ يمكن شغلها بأنواع من النشاط تسمح بتوجيه النزعات الجنسية الناشئة إلى مجال الفكر أو الفن أو الرياضة أو الخدمة الاجتماعية، وتعتبر هذه الأنواع من النشاط مسكنات موفقة، يمكن الاعتماد على ما فيها من تغلب على عقبات لجذب الشباب إلى تجنب الإغراءات والانحرافات الخطيرة وحفظ مستقبلهم ومستقبل أسرهم المقبلة.
وعلى كل تربية تستحق أن تسمى بهذا الاسم، أن تلائم هذا الانتظار، ولن توفق إلا إذا كانت لا تشترط تأخير التنظيم الجنسى طويلاً، أى أن تحبذ الزواج المبكر.

الحب عن الفتاة المراهقة: وتختص المعلومات السابقة بالشباب، ولا تهم الفتيات إلا جزئيًا، وعلينا هنا أن نذكر بعض الاختلافات الجوهرية بينهما.

فإن الإثارة الجنسية لا يتحدد موضعها بوضوح عند البلوغ، بل تظل عند الفتيات منتشرة لوقت طويل، وتتوزع على الجسم كله، ولذلك يقل شيوع العادة السرية بينهن، ويقوم بدلاً منها التأمل الذاتى بدور أكثر أهمية. ويدل الاهتمام الذى يعلقنه على جمال أجسامهن وزينتهن، على اتجاه إلى النرجسيين، إذ لا يصيبهن إلا القليل من خجل المراهقين، ولكنهن يملكن بدلاً منه "حياء" طبيعيًا، ويختلط عندهن برغبة كبيرة في إثارة الإعجاب والتحفظ. وتحيلهن ظهور الغريزة إلى "غانيات"، ويتحكم فى هذا الحياء وهذا التبرج اتجاه عام أكثر سلبية، يتحول أحيانًا عقب مرحلة الاضطراب السابق للبلوغ، إلى كسل يتعارض مع الميل للعراك والهياج عند الشباب. وأخيرًا، يحتل الخيال العاطفى عندهن منزلة كبيرة، فتكفى بعضهن مقابلة أو عدة عبارات عادية ليؤلفن عليها قصة حقيقية تدور بأكملها في رؤوسهن. وتنمو عندهن المودة قبل الرغبة وكلنا يعرف أن اللذة الجنسية تتأخر كثيرًا في التفتح عند المرأة. وتمر المراهقات عادة بمرحلة من المودة الزائفة وصفها مندوس، وذلك قبل أن تبلغن "سن الرشاقة L'age de grace" في حوالى الثامنة عشرة، وهذا ما يعنى أن

نموهن العاطفى يكون أكثر تبكيرًا منه عند الأولاد، كما تختلف عنه كذلك.

وتظهر هذه الاختلافات، أو كما يقول علماء النفس، هذه الخصائص للتمايز الجنسى Le DimorphismeSexuel بحركات مميزة لها، كما في التناقض بين الحركات المرنة التى تكاد تتضح فيها الأمومة، عند الفتاة، وحركات الخشونة والرجولة عند الشاب.

ومع ذلك تحتفظ الحياة العاطفية للمراهقين بخصائص الجنسين في بعض النواحى، ويتضح هذا اللبس أكثر عند الولد، في أشكال جسمه وفي جهازه النفسى كذلك. ولعلك تذكر سحر المراهقين الذين رسمهم ليونارد دافنش، وهناك نظرية حديثة، هى نظرية مارانون Maranon، ترى طبيعية هذه الظواهر الطارئة في الازدواج عند المراهق، بينما ترى ظهور خصائص الرجولة عند الفتاة المراهقة شذوذًا، وهكذا يمر الرجل بسرعة عند البلوغ بمرحلة أنثوية قبل أن يصل إلى الرجولة. أما نمو المرأة فيتوقف على العكس من ذلك عند هذه المرحلة، فلا تصل إلى رجولة كاملة إلا مع سن اليأس، وعندئذ يزيد عندها نمو شعر الوجه، وتصير شخصيتها أكثر صلابة. ولسنا بحاجة إلى قبول تفسير ازدواج الجنس كى نصل إلى الاعتراف بحقيقة وجود مرحلة من "التردد بين الجنسين" ويلزم لها توجيه جنس دقيق واحتياطات كثيرة يجب على المربى أن يتخذها.